اسْتيفان قْزال
الأستاذ والباحث في تاريخ وآثار الجزائر القديمة

أ.د. أورفه لي محمد الخير
أستاذ التعليم العالي معهد الآثار
معهد الآثار – جامعة الجزائر

يعتبر اسْتيفان قزال Stéphane Gsell من الباحثين الأساسيين المتخصصين دون منازع في تاريخ وآثار شمال إفريقيا ومن الأساتذة المؤسسين الأوائل في جامعة الجزائر. فمشاريع أبحاثه تعتبر أُسسا قاعدية في الدراسات الأثرية لكل شمال إفريقيا.

فقد جاء إلى الجزائر في العشرية الأخير من القرن التاسع عشر، فترة تنبه الحكم الاستعماري وقتها إلى أهمية التراث الأثري القديم وخاصة منه المتعلق بالفترة الرومانية، في استخدامه في مآرب تساعده على تثبيت أقدامه. فقد لاحظ أنه بإبراز هذه المعالم للوجود فائدة كبيرة في التعرف على الجوانب التاريخية من فترة اعتبر فيها حكمه استمرارية لها، وعلى الجوانب المعمارية من أجل الاستفادة من خبرة الرومان في اختيار مواقع المستوطنات التي أخذ يقوم ببنائها في كل أنحاء الوطن، بالإضافة إلى جانبها الاقتصادي من أجل استغلال الخبرات القديمة في التعرف على كيفية استغلال الأرض ومد الطرقات واستغلال منابع المياه بمنشآت قنوات المياه التي استخدمها الرومان ذلك الوقت.

فقد تحول الاهتمام بالتراث في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي من أيادي العسكريين الذين كانوا يحاولون الكشف عن التراث خلال حملاتهم وتعسْكراتهم التي قاموا بها عبر الوطن من أجل السيطرة على أنحاء الوطن، إلى أيادي عدد من التقنيين أمثال رافوازيي Ravoisié ودُلامار Delamare الذين قاموا بإنجاز نوع من الأعمال التي تمثلت في الرسومات والمخططات للبقايا الأثرية التي وجدوها خلال مهماتهم عبر الوطن في إطار عمليات الكشف العلمي للجزائر خلال سنوات الأربعينات من القرن التاسع عشر. وبعدها سيكون هذا الاهتمام على يد الإداريين والمثقفين الذين انتظموا في جمعيات أثرية تواجدت على مستوى عدد من المدن، لتتحول في النهاية إلى أيدي المتخصصين الأكاديميين وكان هذا بالبدء بالقيام بالحفريات الكبرى في مدن متميزة بمظهرها العمراني ذات الطابع الروماني مثل تيمقاد وجميلة واللّمبيز.

فاعتبارا من نهاية القرن التاسع عشر أصبح الذين يأتون للجزائر للعمل في هذا القطاع مكونون علميا وأكاديميا تكوينا عالٍ. فكلهم تكونوا تقريبا في أحسن المؤسسات التعليمة المعروفة في فرنسا والمتمثلة خاصة في المدارس الوطنية الفرنسية الكبرى مثل مدرسة شارتر Ecole de Chartre ومدرسة الأساتذة Ecole normale ليمروا بعد ذلك على المدرسة الفرنسية لروما Ecole française de Rome المتخصصة

بالتاريخ والحضارة الرومانية. وحتى معظم هؤلاء أصبحوا فيما بعد أعضاء في الأكاديمية الفرنسية أمثال أوجين ألبرتيني Eugène Albertini وجيروم كاركوبينو Jérôme Carcopino واسْتيفان قزال نفسه.

وقد بدأت بالحقيقة على المستوى الجامعي مع اسْتيفان قزال الذي كان أول أستاذ يُنْشأ له كرسي خاص بالتاريخ القديم لشمال إفريقيا فيما يسمى وقتها مدرسة الجزائر والتي ستتحول فيما بعد إلى كلية الآداب بانتظار إنشاء جامعة الجزائر.

ولد اسْتيفان بمدينة باريس في 07 فيفريي1867م من عائلة بروتستانتية ذات أصول ألزاسية مقيمة في سويسرا في مدينة سانت غال St-Gall منذ عدة أجيال. أبوه كان رساما تشكيليا وهو أيضاً قريب من العالم باستور من جانب أمه[1].

دخل مدرسة الأساتذة عام 1883م بحيث كان معه عدد من الزملاء الذين ربطته بهم الصداقة الدائمة والذين أصبحوا باحثين مشهورين أمثال رينيه دونان René Dunan المتخصص المشهور بالحضارة والآثار الفينيقية.

أنهى دراسته فيها عام 1886م، وكان الأول في دفعته. ثم أصبح عضوا في المدرسة الفرنسية لروما المتخصصة في تاريخ الفترة الرومانية حيث بقي فيها أربع سنوات تحصل خلالها على رسالة الدكتوراه في أطروحته: محاولة في حكم الإمبراطور دومسيانوس Essai sur le règne de l'empereur Domicien، كما قام بحفرياته الأولى في مقبرة فولسي Vulci الأتروسكية. وقد أظهر براعة كبيرة ودقة في بحثه بحيث لفت أنظار أساتذته بشكل ملحوظ. فكان له بذلك تكوين قوي وعلى قاعدة صلبة أتاح له التمكن والسيطرة على مجالات البحث في التاريخ والآثار الرومانية.

القدر يحول توجهاته من إيطاليا الإتروسكية إلى شمال إفريقيا للتخصص في إفريقيا الرومانية. إلا أنه يبقي محافظا على نظرة شاملة، إلى درجة المتخصص، سواء في الفترات السابقة للفترة الرومانية في شمال إفريقيا، أو في الإطار العام للبحر المتوسط.

فقد عين قزال بقرار وزاري عام 1890م كمكلف بالدّروس في آثار وتاريخ شمال إفريقيا القديمة في مدرسة الآداب بالجزائر. قرار حول بالحقيقة كل حياته واتجاهاته في البحث.

منذ عام 1894م، يصبح أستاذا مرسّما فيها بكرسي الآثار القديمة لشمال إفريقيا بحيث يحافظ على المنصب مع تحول المدرسة إلى كلية.

ثم يعين عام 1900م، كمفتش للآثار في الجزائر. ثم مديراً لمتحف الآثار القديمة الجزائرية والفن الإسلامي، مع المحافظة دائما على منصبه الأساسي كأستاذ.

---

[1] - مقالان مهمان حول حياته وأعماله أنجزا من قبل أوجين ألبرتيني عند وفاته ثم كلود لبّيلي في مناسبة مرور خمسين عاما على موته: A. Albertini, « Stéphane Gsell (1884-1932) », In R. Af., 73, 1932, pp. 20-53; C. Lepelley, « Stéphane Gsell et l'histoire de l'Afrique antique », In Stéphane Gsell, Etudes sur l'Afrique antique, Scripta varia, Université de Lille III, 1981, pp. 09-18.

في عام 1910م، ماتت زوجته بعد عام من الزواج مخلفة له ولدا، حدث كان له الأثر وعاملا أساسيا في تحول حياته ومكان إقامته. فقد غادر الجزائر ليقيم بباريس بعد تعينه عام 1912م أستاذا في الكلية الفرنسية Collège de France حيث أنشئ له كرسي خاص بتاريخ شمال إفريقيا. وقد حافظ دائما على منصبه كمفتش للآثار القديمة الجزائرية بحيث كان يأتي للجزائر بشكل دوري.

في عام 1919م، عين مفتشا عاما للمتاحف الأثرية والعلمية الجزائرية.

قام قزال بالتجوال في أنحاء الجزائر ممارساً العمل الميداني والاكتشاف سواء في الحفريات أو المسح الجغرافي. فكرسيه كان كرسي بحث قبل كل شيء، وبفضل ثراء البلاد وغناها بالبقايا الأثرية على أنواعها سواء في بقايا المدن القديمة أو المعالم المعمارية أو المواد الأثرية الخفيفة المتنوعة من فخاريات عملات أثاث وغير ذلك سواء في الكتابات الإيبغرافية. وبفضل العمل الدؤوب فقد تراكمت لديه الكثير من المعطيات بسرعة باهرة. فبالإضافة غل الحفريات التي قام بها في تيبازة فقد قام بالمسح الأثري وبالكشف عن مناطق سطيف وسوق أهراس وشمال منطقة الأوراس وجبال باتنة. وصار يقدم أعماله بشكل أبحاث ودراسات ينشرها بشكل مقالات في الدوريات المتخصصة والمتمثلة خاصة في:

- Bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques.
- Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et belles-lettres.
- Mélanges de l'école française de Rome.
- Revue archéologique.
- Revue africaine.
- Recueil de la société archéologique de Constantine.
- Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran.

أو في كتب كان أهمها:

رسالته التي كتبها باللاتينية حول مدينة تيبازة، مدينة من موريطانيا القيصرية وقد نشرها فيما بعد مترجمة إلى الفرنسية في مجلة المدرسة الفرنسية لروما (Tipasa،ville de la Maurétanie césarienne ، MEFR، t. XIV، 1894). وهي دراسة للمدينة وقد اكتشف فيها قبر وكنيسة القديسة سالسا.

وعدد من الكتب حول المتاحف والمواقع الأثرية من أهمها:

مرشد حول الآثار الموجودة حول مدينة الجزائر عام 1896م (Guide archéologique des environs d'Alger) ويطوره عام 1926م في (Promenades archéologiques aux environs d'Alger).

وحول متاحف سكيكدة عام 1898م (Musée de Philippeville)، وتبسّة عام 1902م (Musée de Tebessa) وشرشال الذي نشر بعد موته عام 1952م (Cherchel antique،Iol- caesarea).

ونشر أيضا في عام 1912م، النصوص التوضيحية للوحات دُلامار التي قام بها هذا الأخير في إطار عملية الكشف العلمي للجزائر التي جرت خلال أعوام الأربعينيات من القرن التاسع عشر (Exploration scientifique de l'Algérie، Ad.- H. Al- textes explicatif des planches de Delamare).

ونشر عام 1919م بمشاركة شارل جولي C. Joly الكتاب الثلاثي الأجزاء "خميسة، مداوروش، عنونة" الذي كان عبارة عن نتائج الحفريات التي جرت في المدن الثلاثة.

وقام في عام 1915م بالبدء في مشروع لجامعة الجزائر خاص بالنصوص القديمة لدى الكتاب الكلاسيكيين والمتعلقة بشمال إفريقيا. فقدم ترجمة نصوص هيرودوت المتعلقة بشمال إفريقيا.

ألا أن أهم منجزاته الأساسية والتي تشكل أساسا في أعمال البحث كانت قد تمثلت في أربعة محاور:

1) الأطلس الأثري الجزائري Atlas archéologique de l'Algérie:

تتجه جهوده اعتبارا من عام 1902م إلى عام 1911م نحو تكوين الأطلس القائم على المسح الأثري الذي سيظهر بشكل رزم مرقمة لكل منطقة جغرافية محددة معتمدة على خرائط من بمقياس 200000/1 حصر فيها كل لموجودات الأثرية بواسطة نقاط على الخرائط مرقمة أعطي في النص ما يوجد حولها من معلومات ميدانية وبيبليوغرافية.

فكان للقطاع الأثري الجزائري حظ كبير في إنجاز هذا العمل منذ بداية القرن العشرين والذي بقيت تفتقده خلال زمن طويل الدول الأخرى الغنية بحضاراتها القديمة.

2) مجمع الكتابات اللاتينية الجزائرية Recueil des inscriptions latines de l'Algérie:

فقد بدأ بجمع المواد الخاصة بالكتابات اللاتينية من أجل مشروع مجمع لهذا ليظهر تحت اسم مجمع الكتابات اللاتينية. وقد نشر الجزء الأول منه عام 1922م الذي كان مخصصا لكتابات إفريقيا البروقنصلية. فكان أحدث مما نشر في مدونة الكتابات اللاتينية Corpus Inscriptionum latinarum المنشور من قبل مومسن Mommsen. فقد أكمل ما ينقصه من الكتابات التي كشف عنها حديثا، بالإضافة إلى قراءته الخاصة لكل كتابة مع تعليقه عليها ضافيا عليها من خبرته التاريخية والإيبيغرافية المتعمقة للمنطقة. وقد أظهر قزال هنا إمكانياته الكبيرة وتحكمه في الإيبغرافيا كمتخصص في الميدان.

3) تاريخ شمال إفريقيا القديم Histoire ancienne de l'Afrique du Nord:

يعتبر إنجاز التاريخ القديم لشمال إفريقيا من أهم منجزات قزال فقد قام بكتابته بين عامي 1913م–1928م في ثمانية أجزاء. فكان فيه تاريخ المنطقة منذ البدايات تواجد الإنسان في المنطقة حسب الوثائق

المتوفرة في عهده حتى نهاية الممالك المحلية في تحويل مملكة موريطانيا القيصرية إلى ولاية رومانية عام 40 م. وقد قام فيه بدراسة كل الوثائق والدراسات المتوفرة خلال وقته، فعرضها ونقدها وتحقق من صحتها، كل هذا من خبرته التي اكتسبها في معرفة دقائق أحداث وظروف المنطقة خلال الفترة المدروسة. فرغم قدم هذا الإنجاز حاليا عن وقتنا فإن معظم جوانبه وتحليلاته ما زالت تحمل قيمتها.

وقد تميزت لغته دائما بالبساطة والوضوح الكامل ويرجع هذا طبعا إلى تكوينه اللغوي والعلمي وخبرته الكبيرة في الميدان. وكان هدفه إتمام كتابة الفترة التالية والمتعلقة في إقليم إفريقيا الرومانية إلا أن المنيّة وافته. وقد حاول طلبته من بعده إتمام العمل أمثال ألبرتيني Albertini وكاركوبينو Carcopino إلا أن أحدا لم يستطع إكمال المشروع وتوقف المشروع عنده.

4) المعالم الأثرية القديمة الجزائرية Les monuments antiques de l'Algérie:

كانت السلطات قد طلبت منه ملفات حول المعالم التاريخية القديمة لتصنيفها كمعالم تاريخية. فكون ملفات حول أهما ضمّ فيها أنواع المعالم منذ أقدمها من المغاور والكهوف الصخرية التي ترجع لما قبل التاريخ حتى القلاع البيزنطية. وقد نشر الكتاب في جزئين.

إلا انه رغم كل الصفات والكفاءات التي تحلّى بها هذا العالم سواء في موسوعيته أو منهجيته فإن الكثير من المآخذ أيضا تضعنا أمام الحذر من قراءاته وتفسيراته للتاريخ. فقد كانت كتاباته مسايرة للسياسة الاستعمارية التي تحكم ذلك الوقت. فأفكاره هذه نجدها ملخصة في خطبة ألقاها قبل سنة من وفاته بالجزائر في 14 أفريل 1930م. وكانت بمناسبة افتتاح المؤتمر الدولي الخامس المنعقد في جامعة الجزائر بين 14–16 أفريل 1930م، وكانت بنفس الوقت بالمناسبة المئوية لاحتلال الجزائر[2].

فهو يعتبر أن المدينة في شمال إفريقيا خلال هذه الفترة هي رومانية كانت غريبة عن السكان وبقي السكان غريبين عليها. فهو يعتبرها بأنها كانت من إنجاز البرجوازية الصغيرة التي فيها قليل من الدم الإيطالي مختلطة بكثير من الدم الإفريقي، كانت تستخدم العبيد والبروليتاريا الحرة ولكنها فقيرة في خدمة الأرض. فهؤلاء المزارعون كانوا يقومون بخدمة الأرض بشكل مزر إلا أنهم لم يستطيعوا أبدا أن ينشئوا مدنا أو منازل مرومنة.

ويصنف في السكان أكثر بعدا والقاطنين خارج المدن ذوي النمط القبلي والرعوي في المعيشة والتي تنطبق على أحفادهم البربر الحاليين حسب نظره، بالسكان المعادين للمدينة. هم فقراء لأنهم لا يحبون العمل ليحسنوا مستواهم المعيشي. ولأن تقدم الزراعة ستنقص من أراضيهم التي ينشون فيها وتحدد من تحركاتهم. فقد بقيوا غرباء على حضارة لم تر فيها روما ضرورة للأخذ بيدهم ليصلوا إلى مستواها. أما هم

[2] S. Gsell, Discours d'ouverture prononcé au cinquième congrès international d'archéologie, Alger (14-16 Avril 1930), Alger, Société historique algérienne, 1933.

فكانوا مستعدين دائما للانقضاض على مؤسساتها لنهب الثروات التي هي تحت أعينهم عندما تحين لهم الفرصة في ذلك.

فرغم اعترافه بأن التكوين السكاني الغالب لهذه المدن الصغيرة هم من الأفارقة فالمدينة بالنسبة له كانت أجنبية على السكان. فهذه المدينة بثقافتها اللاتينية كانت رومانية غريبة على السكان وبقي السكان غريبين عليها وهي إرث للمستعمر، حيث يلخصها بقوله "نحن لاتينيون، ورثة اللاتينيين على هذه الأرض، وعلينا واجب الجمع والحفاظ على أكثر الشواهد قيمة لمنجزات أسلافنا"[3].

فكان مساهما في زرع فكرة المستعمر بأن هذه الفترة ليست للأفارقة بل هي للأوربيين فالفرنسيون جاؤوا ليعيدوا وصل هذه الفترة القديمة بتواجدهم فهي إرثهم وثقافتهم ولم تكن الفترة الإسلامية إلا فترة انقطاع بينهما. بالحقيقة أن هذه النظرة ستستمر لدى الباحثين الفرنسيين التالين ليظهر على أساسها فيما بعد فكرة فجر التاريخ عند جابرييل كامبس Gabriel Camps لدى السكان، فترة تبدأ مع نهاية العصور الحجرية وستستمر مع تواجد الحياة المدنية. فالسكان حسب هذا الأخير سيبقون يعيشون على هامش التاريخ أي غرباء على الحياة المدنية المعتبرة لديهم بأنها كانت رومانية.

[3] - S. Gsell, Op. Cit., p. 05.